موقف الأقباط من الحروب الصليبية على مصر

The Attitude of the Copts on the Crusades against Egypt

م.د. هشام محمد رفيق

Dr. Husham Mohammed Rafeeq

ديوان الوقف السني/ دائرة التعليم الديني والدراسات الاسلامية

Husham.5875@gmail.com

ملخص البحث

شغلت الحروب الصليبية العالم كله، والتي استمرت لما يقارب المائتي سنة (٤٩٠- ٦٩٠هـ/ ١٠٩٦- ١٢٩١م)، واستمرت لثلاثة عصور سياسية في مصر (الفاطمي والأيوبي والمملوكي).

كان لأقباط مصر موقف بل مواقف من هذه الحملات بين رفضها في الغالب، وقبولها أحياناً ومن قبل بعض الأشخاص، كما كان للمصريين المسلمين مواقف من الأقباط كونهم على عقيدة تشبه عقيدة الجنود الغزاة في الحملات الصليبية، فصار الأقباط بين نارين؛ مضطهدون من قبل الجنود الصليبيين لأنهم على خلاف مع الكنيسة الغربية الكاثوليكية، والأقباط ينتمون للكنيسة الشرقية الأرثوذوكسية، ومن جانب آخر هم متهمون لدى قبل المسلمين بالتعاون مع جنود الحملات الصليبية على مصر، وتطور الأمر الى اتخاذ إجراءات عملية منها إبعاد الموظفين منهم من وظائفهم في الدواوين وأحياناً تصل الى السجن ومصادرة أموالهم وقد تصل العقوبة للموت.

الكلمات المفتاحية: الأقباط، الحروب الصليبية، مصر، الكنيسة القبطية، اليعاقبة المصريين

ABSTRACT

The Crusades occupied the whole world, which lasted for nearly two hundred years (490-690 AH / 1096-1291 AD), and continued for three political eras in Egypt (Fatimi, Ayyubid, and Mamluk).

The Copts of Egypt had a position, or even positions, towards these campaigns, between their rejection in most cases, and their acceptance at times and by some people, just as the Egyptian Muslims had attitudes towards the Copts because they adhere to a belief similar to the belief of the invading soldiers in the Crusades, so the Copts became between two fires; They are persecuted by the Crusader soldiers because they are at odds with the Western Catholic Church, and the Copts belongs the Eastern Orthodox Church. On the other hand, they are accused by the Muslims of collaborating with the soldiers of the Crusader campaigns against Egypt. Up to prison and confiscation of their money and the penalty may reach to death.

Keywords: Copts, Crusades, Egypt, Coptic Church, Egyptian Jacobins

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

منذ دخول المسلمين الى مصر وفتحها سنة ٢١هـ/ ٦٤١م، عاش الأقباط المسيحيون في مصر مع المسلمين في ود وسلام وتعايش وتعاون، إذ فضّل الأقباط حكم المسلمين على حكم الروم على الرغم من أنهم على عقيدة واحدة وهي المسيحية، إلا أنهم اختلفوا في المذهب فالروم كاثوليك، والأقباط أرثوذوكس، كما أنهم رأوا تسامح المسلمين معهم فكانوا خير عون لهم فنالوا ثقة المسلمين، فشاركوا في الحياة العامة في مصر في السياسة والإدارة والاقتصاد، وكانوا جزءاً مهماً من النسيج الاجتماعي.

بدأت تظهر على الساحة أحداث كبرى منها سيطرة السلاجقة على مناطق واسعة من الشام وآسيا الصغرى، ثم الصدام السياسي والعسكري بين السلاجقة والفاطميين، ثم بدء الحملات الصليبية على بلاد المسلمين والقدس، والتي سماها المؤرخون المسلمون بـ(حروب الفرنجة).

كانت البداية حينما غزت شواطئ بلاد الشام حملة أوروبية اشترك فيها الفاتيكان وانجلترا وفرنسا وألمانيا سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م، وتمكنت تلك الحملة من تأسيس أربع إمارات صليبية هي بيت المقدس وأنطاكيا وطرابلس والرها، ظلت هذه الإمارات مراكز للصليبيين يهاجمون منها[١].

ومع بداية الحملات الصليبية ظهرت على السطح مشاكل جديدة، فقد رأى الأقباط أنهم متهمون بمساعدة الغزاة الصليبيين على اعتبار أنهم مسيحيون، وأنهم متهمون من قبل الصليبيين الكاثوليك على اعتبار أنهم أرثوذوكس، ومن المعلوم أن الخلاف بينهما كبير.

قُسمت الدراسة الى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، المبحث الأول بعنوان موقف الأقباط من الحروب الصليبية في العصر الفاطمي، والثاني بعنوان موقف الأقباط من الحروب الصليبية في العصر الأيوبي، أما المبحث الثالث فكان بعنوان موقف الأقباط من الحروب الصليبية في العصر الفاطمي المملوكي.

(١) الانطواني، الراهب القمص انطونيوس، وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها من بعد الآباء والرسل حتى الانتداب البريطاني على مصر (منذ عام ١٥٠م الى عام ١٨٨٢م)، ط٢، المكتبة القبطية، (القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ص٢٢٣.

المبحث الأول
موقف الأقباط من الحروب الصليبية في العصر الفاطمي

نجح الفاطميون في تحقيق أكبر إنجازاتهم وهو دخولهم مصر والسيطرة عليها وإعلان قيام الخلافة الفاطمية، وبناء مدينة القاهرة على يد القائد جوهر الصقلي سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، وبقي الفاطميون يحكمون مصر لأكثر من مائتي عام (٣٥٨- ٥٦٧هـ/ ٩٦٩- ١١٧١م)[١].

ففي زمن الخلافة الفاطمية تعرضت مصر لأربعة حملات أو أربع محاولات لاحتلالها من قبل القوات الصليبية، وقد استطاع الغزاة الصليبيين في بعضها من دخول المدن المهمة وعاثوا فيها فساداً[٢]، وكانت المدن الساحلية على البحر المتوسط هي المقصودة غالباً، وهذه المدن هي: الفرما وتنّيس ودمياط وفسطاط مصر والفيّوم ورشيد والإسكندرية[٣].

ومما يذكر عن أولى الحملات الصليبية للبلاد المصرية هذه أنها كانت أيام الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله (٤٩٥-٥٢٤هـ/ ١١٠١-١١٢٩م) وفي أيام البابا مكاريوس الثاني (٤٩٦- ٥٢٤هـ/ ١١٠٢- ١١٢٩م) وفيها اتجه بلدوين ملك مملكة بيت المقدس اللاتينية الى البلاد المصرية لغزوها سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م، ووصل الفرما فنهبها وأحرقها[٤]، وفتك بأهلها بلا تمييز بين مسلم ومسيحي وأشعل النار فيها، وواصل زحفه حتى وصل مدينة تنّيس، ثم عاد منها بسبب المرض[٥].

تبين لنا إيريس حبيب المصري طبيعة العلاقة بين الأقباط وجنود الحملة الصليبية فتذكر أنه استبد الأسى بالقبط إذ رأوا المعتدين يحملون الصليب على صدورهم، وكان من الطبيعي أن يسيء المسلمون الظن بالقبط في بادئ الأمر فهم لا يعرفون طبيعة الخلاف بين الكنيستين الغربية والشرقية، ومن جانب الصليبيين كانوا يعتبرون القبط وغيرهم من مسيحيي الشرق مبتدعين منبوذين خارجين عن حظيرة كنيستهم الرومانية،

(١) ستانلي لين بول، تاريخ مصر في العصور الوسطى، ترجمة وتحقيق وتعليق: أحمد سالم سالم، ط٢، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م)، ص١٠-١١.

(٢) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت ٤٨٧هـ)، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ج١، ص١٨٤.

(٣) ستانلي لين بول، تاريخ مصر في العصور الوسطى، ص١٠-١١.

(٤) ساويرس ابن المقفع، ابو البشر (ت ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م)، تاريخ البطاركة، تحقيق: عبد العزيز جمال الدين، ط١، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م)، ج٣، ص١٢٥١.

(٥) الاسكندري، عمر؛ سفدج، الميجر أ. ج، تاريخ مصر الى الفتح العثماني، ط٢، مطبعة المعارف، (القاهرة، ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م)، ص٢٤١؛ الانطواني، وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها، ص٢٢٣.

وهكذا كانت هذه الحروب الصليبية هماً وغماً على حاملي الصليب في الشرق[١].

أما الحملة الصليبية الثانية على مصر فقد كانت سنة **٥٦٢**هـ/ **١١٦٦**م، واتفق وصولها مع حملة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين وانتهت بانتصار شيركوه، والحملة الصليبية الثالثة على مصر كانت سنة **٥٦٤**هـ/ **١١٦٨**م، وانتهت أيضاً بانتصار شيركوه، واستقبله الخليفة الفاطمي العاضد (**٥٥٥-٥٦٧**هـ/ **١١٦٠-١١٧١**م) بالترحاب[٢]، والحملة الرابعة على مصر كانت سنة **٥٦٥**هـ/ **١١٦٩**م في زمن الخليفة الفاطمي العاضد، وصلت الحملة الصليبية الى دمياط وحاصروها، لكنهم اضطروا الى فك الحصار والانسحاب الى بلادهم، وهكذا فشلت الحملة في غزو دمياط والاستيلاء على مصر[٣].

وعلى الرغم من سياسة الفاطميين المتسمة بالتسامح تجاه الأقباط، إلا أن هذا لم يحل دون فرض بعض الضرائب الإضافية عليهم لمواجهة الخطر الصليبي في بلاد الشام ومصر، كذلك كانت لدى الفاطميين مخاوف وشكوك في موقف الأقباط تجاه الصليبيين الذين احتلوا الأراضي المقدسة، وباتوا يهددون مصر نفسها، على أساس أن هؤلاء وهؤلاء كانوا في نهاية الأمر على دين واحد وهو المسيحية، ومن ثم كان من الضروري مراقبة سلوك الأقباط عن كثب من جانب الفاطميين، وظل هذا الموقف سائداً في الدوائر الرسمية طيلة الفترة المأساوية للعدوان الصليبي على المنطقة[٤].

أما بالنسبة للأقباط فقد كانت الحملات الصليبية تمثل أشد الكوارث هولاً على المجتمعات المسيحية الشرقية، فالحملات الصليبية التي هجمت على العالم الاسلامي حاملة علامة الصليب، قد ولدت كراهية مريرة في نفوس الناس ضد المسيحيين الغربيين والشرقيين على حد سواء[٥].

كما كان الصليبيون الكاثوليك ينظرون نظرة حقد وازدراء للمسيحيين الشرقيين بشكل عام وللأقباط اليعقوبيين بشكل خاص، ولما احتل الصليبيون بيت المقدس، منعوا الأقباط من الحج الى هذه المدينة المقدسة بدعوى أنهم ملحدون، فلم يكن حزن الأقباط على فقدان بيت المقدس بأقل من حزن المسلمين[٦].

(١) إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، مكتبة كنيسة مارجرجس باسبورتنج، (الإسكندرية، بلا.ت)، ج٣، ص١٢٠.
(٢) الانطواني، وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها، ص٢٢٤.
(٣) ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، (القاهرة، بلا.ت)، ج٥، ص٣٨٢.
(٤) سوريال عطية، عزيز، تاريخ المسيحية الشرقية، ترجمة: إسحاق عبيد، المشروع القومي للترجمة، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، (القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ص١١٤.
(٥) سوريال عطية، تاريخ المسيحية الشرقية، ص١١٤.
(٦) جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي الى عام ١٩٢٢م، مؤسسة هنداوي، (القاهرة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٢م)،

يقول الأسقف والمؤرخ القبطي ساويرس ابن المقفع: « ولما ملكوا مدينة القدس الشريف وما يليها سنة اثنين وتسعين وأربع مائة الهلالية، صرنا معشر النصارى اليعاقبة القبط لا نصل الى الحج إليها، ولا نتمكن من الدنو من ذلك لأجل ما هو من بغضهم لنا وهو اعتقادهم فينا وتكفيرهم إيانا»(١).

في أيام الخليفة الفائز بنصر الله عيسى (٥٤٩- ٥٥٥هـ/ ١١٥٤-١١٦٠م)، والوزير حينئذ الصالح طلائع بن رزيك، نزل على دمياط نحو ستين مركبا في جمادى الآخرة سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م، بعث بها صاحب صقلية، فعاثوا وقتلوا، ونزلوا تنيس ورشيد والإسكندرية، فأكثروا فيها الفساد، ثم كانت خلافة العاضد لدين الله عندما حضر ملك الفرنج إلى القاهرة، وحصرها وقرّر على أهلها المال، واحترقت مدينة الفسطاط، فنزل على تنيس وأشموم ومنية عمر، وصاحب أسطول الفرنج في عشرين شونة، فقتل وأسر وسبى(٢).

وفي منتصف محرم سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م، اتجه عموري (أموري) أو (أمالريك) (ملك بيت المقدس) الى مدينة الشرقية ووصل الى أطراف بلبيس، أغلق الأهالي المدينة وثاروا ضده، لكنه استطاع دخولها بالقوة، وأمعن في أهلها فتكاً وقتلاً ولم يفرق بين مسلم ومسيحي ويهودي(٣)، ذكر ذلك أبو شامة بقوله: «وتوجهوا من عسقلان في النصف من المحرم ووصلوا أول يوم من صفر إلى بلبيس ونازلوها وحصروها فملكوها قهرا ونهبوها وسبوا أهلها وأقاموا بها خمسة أيام ثم أناخوا على القاهرة وحصروها»(٤).

ويروي الأقباط أنه لما دخل عموري الى بلبيس قتل كل من وجده فيها من الجنود، وقتل جماعة كبيرة من عوام الناس مسلمين ونصارى (أقباط) داخلها، وأباح لعسكره القتل والسبي والنهب ثلاثة أيام ليلاً ونهاراً، وأسر من بقي من أهلها وحملهم معه الى الشام، وأحرق المدينة ومضى بأموالها وأسراها(٥)، وكان عموري يريد بذلك إلقاء الرعب في قلوب أهل القاهرة(٦).

ص١٣٧؛ إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، ج٣، ص١٢٠.

(١) ساويرس ابن المقفع، تاريخ البطاركة، ج٣، ص١١٦١.

(٢) المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار= الخطط المقريزية، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، ج١، ص٣٩٦.

(٣) منير، عمرو عبد العزيز، ثورات مصر الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٤م)، ص٨٣؛ غنيم، إسمت، تاريخ الحروب الصليبية، جامعة الإسكندرية، (الإسكندرية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ص٦٦.

(٤) أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، ط١، مؤسسة الرسالة، (بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، ج٢، ص٤٧.

(٥) ساويرس ابن المقفع، تاريخ البطاركة، ج٣، ص١٤٣٧.

(٦) أ.ل.بتشر، تاريخ الأمة القبطية وكنيستها، تعريب: اسكندر تادرس، مطبعة مصر، (القاهرة، ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م)،

وتروي إيريس حبيب أنه أضاف الجريمة الى الخيانة، فقد أعمل رجاله سيوفهم في رقاب أهلها وأبادوهم عن بكرة أبيهم، فلم يحترموا سناً ولا جنساً ولم يفرقوا بين مسيحي ومسلم(١).

ويذكر رانسيمان أن الجنود الصليبيين دخلوا بلبيس سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م وعملوا مذبحة مروعة للسكان، وكانت الطوائف القبطية وهي بأعداد كبيرة في مدن الدلتا خاصة، على استعداد للتعاون مع الرفاق المسيحيين، غير أن الأقباط والمسلمين على السواء قد هلكوا في المذبحة، فاتحد الشعب المصري كله في بغضه للفرنج، وبعد أيام قليلة وصل أسطول فرنجي صغير محمل بالغربيين، وهبط في تنيس الى بحيرة المنزلة، وتكرر نفس مشاهد الرعب، وكان الأقباط هم الذين عانوا أكثر من غيرهم(٢).

وقد زاد الطين بلّة هجوم الصليبيين على بلبيس، لأن عامة الناس لم تدرك الفرق بين الغزاة وبين المسيحيين الوطنيين (الأقباط)، لأن الشارة التي كان يحملها هؤلاء الغزاة كانت الصليب، والصليب هو أيضاً شارة المسيحيين المصريين، فكان على هؤلاء المصريين الحاملين للصليب أن يدفعوا ثمن الغدر الذي أبداه الصليبيون الأجانب، وفي الوقت عينه كان هؤلاء الأجانب المستترون تحت شارة الصليب يفتكون بجميع المصريين من غير تفريق، فكأن القبط وقعوا بين شقي الرحى(٣).

وفي سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م توجه الفرنجة مرة أخرى الى دمياط فحاصروها وسيطروا على حصن عكار(٤)، يقول رانسيمان: وبعد وصولهم دمياط ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م نصبوا آلات الحصار وأطلقوا الحجارة على ناحية مقدسة تضم كنيسة صغيرة مكرسة للسيدة العذراء قد توقفت فيها أثناء رحلتها الى مصر، فدب الهلع بين السكان المحليين من المسيحيين والمسلمين على السواء(٥).

ويرى الراهب القمص انطونيوس الانطواني أن الأقباط بريئون من تهمة التعاون مع الصليبيين بل هو مجرد ادعاء لا صحة له، فهو يذكر أحد أكابر الأقباط ووجهائهم وهو (الأسعد أبو الخير جرجة بن أبي وهب الشهير بابن الميقاط) وأن الوزير شاور في زمن الخليفة الفاطمي العاضد (ادعى عليه أنه يتعاون مع

ج٣، ص١١٣.

(١) إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، ج٣، ص١٥٣-١٥٤.

(٢) رانسيمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: نور الدين خليل، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)، ج٢، ص٤٣٧-٤٣٨.

(٣) إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، ج٣، ص١٤٣.

(٤) ابن واصل، محمَّد بن سالم بن نصرالله بن سالم الحموي (ت ٦٩٧هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: الدكتور جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، (القاهرة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م)، ج١، ص١٨١.

(٥) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ج٢، ص٤٤٣.

جنود الصليبيين الفرنجة سراً، فقبض عليه وصار يعذبه حتى مات)[١].

كما يذكر سوريال عطية أن اثنين من كبار الموظفين زمن الخلافة الفاطمية قد همسا في إذن الخليفة الفاطمي بأن الأقباط يجمعون الأموال ويرسلونها سراً الى الصليبيين، وعليه فإن الخليفة الفاطمي أصدر أمراً بمصادرة كل الأموال التي كانت في أيدي القبط[٢].

وقد انتهى العصر الفاطمي بكارثة أصابت الجميع وضربة قاصمة للقبط، فقد تم إحراق مدينة الفسطاط سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م بواسطة شاور وزير آخر الخلفاء الفاطميين العاضد، وذلك لكي ينقذ المدينة من الوقوع في أيدي عموري ملك مملكة بيت المقدس الصليبي، والذي كان يخطط لاستخدام الفسطاط كقاعدة ينطلق منها للسيطرة على مصر كلها[٣]، وكان في الفسطاط الكثير من بيوت الأقباط والذين تشردوا بعد إحراق مدينتهم، كما كان حصن بابليون يضم أقدم كنائسهم وأعظمها، وهكذا جلب الصليبيون على الأقباط المصائب الواحدة تلو الأخرى[٤].

وفي الرواية القبطية أن حريق الفسطاط كان نذير شر مستطير على القبط، فقد صب شيركوه غضبه الذي شعر به نحو الصليبيين على القبط، فلم يجد أمامه من يكفر عن سيئات حاملي الصليب الفرنجة غير حاملي الصليب (الأقباط) فتضاعفت الجزية عليهم وأحرقت كنائس[٥].

وفي هذه الرواية دلالة على توجس المسلمين من الأقباط أثناء وجود الصليبيين في مصر واحتلال بعض مدنها، فالتشابه في العقيدة جعلهم موضع اتهام، ومن جانب آخر نلاحظ الصعوبات التي واجهها الأقباط في هذه الفترات المظلمة من تاريخ مصر، وقد فرضت بعض الضرائب الإضافية عليهم لمواجهة الخطر الصليبي.

(١) الانطواني، وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها، ص٢٢٠.
(٢) سوريال عطية، تاريخ المسيحية الشرقية، ص١١٥.
(٣) ابن اياس، محمد بن أحمد الحنفي المصري (ت ٩٣٠هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطابع الشعب، (القاهرة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)، ص٥٤؛ إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، ج٣، ص١٥٤.
(٤) أ.ل.بتشر، تاريخ الأمة القبطية وكنيستها، ج٣، ص١١٤؛ الاسكندري، تاريخ مصر الى الفتح العثماني، ص٢٤١.
(٥) إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، ج٣، ص١٥٤.

المبحث الثاني
موقف الأقباط من الحروب الصليبية في العصر الأيوبي

يعتبر السلطان صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م وأشهر سلاطينها، وقد حاز على شهرته عند المسلمين والمسيحيين نظراً للدور الكبير الذي لعبه في الجهاد ضد الصليبيين، والذي تكلل بانتصاره عليهم في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، والواقع أن تاريخ الأيوبيين في مصر والشام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحروب الصليبية(١).

لاقى الأقباط توفيقاً مع السلطان صلاح الدين وابن أخيه الكامل، فقد رفع السلطان صلاح الدين عن الأقباط جميع المكوس التي كانت مفروضة عليهم سابقاً أيام الدولة الفاطمية(٢)، وقد وهبهم السلطان صلاح الدين مكاناً في بيت المقدس وهو الدير المعروف بـ(دير السلطان) نسبة اليه، لكن معاملة وزيره بهاء الدين قراقوش لم تكن مرضية بالنسبة للأقباط(٣).

لقد كان للمصريين بشكل عام (مسلمين وأقباط) دور كبير في دفع خطر حملة لويس التاسع في الحملة الصليبية السابعة عن مصر، ووقف الأقباط في دمياط الى جانب المسلمين في الدفاع عن مدينتهم، لذلك اظهر الصليبيون تعصباً كبيراً ضد الأقباط، وبالمقابل لم يرتح الأقباط الى فكرة وجود المسيحيين الكاثوليك في أراضي مصر، لذلك كان الموقف عدائياً بين الطرفين.

وما يعزز هذا الرأي أن الأقباط كانوا يتجسسون لصالح السلطان صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين(٤).

بعد هجوم الصليبيين على مصر عدة مرات، نجحوا في بعضها ودخلوا المدن المصرية وقتلوا من أهلها ونهبوها وأخذوا البعض من أهلها أسرى، فقد وصلت مجموعة سفن من صقلية الى ميناء الإسكندرية سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، فنزلت القوات على الشاطئ واستطاعت تدمير بعض السفن التجارية الراسية في ميناء الإسكندرية، وحاولوا اقتحام المدينة الا ان الأهالي حاربوهم ثم وصل صلاح الدين بجيشه فاضطرت القوات الغازية الى الانسحاب الى بلادهم(٥).

(١) غنيم، تاريخ الحروب الصليبية، ص٦٣.
(٢) ساويرس ابن المقفع، تاريخ البطاركة، ج٣، ص١٤٦٩.
(٣) الأنبا ديوسقورس، موجز تاريخ الكنيسة، إعداد ومراجعة: دياكون ميخائيل مكسي اسكندر، مكتبة المحبة، (القاهرة، بلا.ت)، ج٢، ص٤٣٦.
(٤) جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي الى عام ١٩٢٢م، ص١٣٩.
(٥) ابن شداد، يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة (ت ٦٣٢هـ)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط٢، مكتبة الخانجي، (القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)، ج١، ص٩١؛ ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع

وذكر المقريزي في أحداث سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م وصل إلى تنيس من شواني صقلية نحو أربعين مركباً، فحصروها يومين وأقلعوا، ثم وصل إليها من صقلية أيضا في سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م نحو أربعين مركبا فقاتلوا أهل تنيس حتى ملكوها، فأصبح الفرنج إلى المصلى وقاتلوا من بها من المسلمين، فقتل من المسلمين نحو السبعين، وسار من بقي منهم إلى دمياط، فمال الفرنج على تنيس وألقوا فيها النار، فأحرقوها، وساروا وقد امتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى إلى جهة الإسكندرية بعد ما أقاموا بتنيس، أربعة أيام، ثم لما كانت سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م نزل فرنج عسقلان في عشر حراريق على أعمال تنيس(١).

وفي تلك الفترة امر السلطان صلاح الدين الأيوبي بتشييد قلعة على تلال المقطم في القاهرة، بواسطة مهندسين معماريين قبطيين هما أبو منصور وأبو مشكور(٢)، وفي هذا دلالة على ثقة صلاح الدين الايوبي بالأقباط وبكفاءتهم وتقريبهم منه، وقد قرر الأيوبيون هدم مبنى كاتدرائية القديس مرقص في الاسكندرية، لأنها كانت تطل على المرسيين البحريين للمدينة، ولئن وقعت في أيدي الصليبيين سوف يتخذونها قاعدة لهم للاستيلاء على المدينة كلها(٣)، جاء هدم الكاتدرائية لسبب عسكري استراتيجي وليس من باب الظلم للأقباط أو الشك فيهم بمساعدة الجنود الصليبيين.

وبعد أن انتصر السلطان صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وبعد أن استرد بيت المقدس في العام نفسه، هدأت النفوس وانتهت موجة التشدد نحو الأقباط في مصر، ولقد منح السلطان صلاح الدين للأقباط ديراً مجاوراً لكنيسة الضريح المقدس في بيت المقدس والذي لا يزال حتى اليوم تحت أيديهم(٤).

فيذكر ابن أيبك الدواداري أن الفرنج (الصليبيين) لما دخلوا مصر كانوا لا يفرقون بين مسلم ومسيحي فكلهم أعداؤهم، فذكر في أحداث سنة ٦٠٠هـ/ ١٢١٣م أنه « دخل أسطول الفرنج إلى فوّة يوم عيد الفطر، من فم رشيد، ونهبوها، وقتلوا من كان بها»(٥).

الدهور، ص٥٧.

(١) المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص٣٣٤.

(٢) سوريال عطية، تاريخ المسيحية الشرقية، ص١١٧؛ إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، ج٣، ص١٥٧.

(٣) إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، ج٣، ص١٥٧؛ جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي الى عام ١٩٢٢م، ص١٤١.

(٤) سوريال عطية، تاريخ المسيحية الشرقية، ص١١٧.

(٥) ابن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله (ت ٧٣٦هـ)، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، عيسى البابي الحلبي، (دمشق، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م)، ج٧، ص١٥٥.

وبهجومهم على رشيد تقدموا الى فوه وتحصنوا فيها، وكانت آنذاك أسقفية إذ كان عدد الأقباط فيها كبيراً، فأعملوا السيف في الرقاب وقتلوا من قتلوا وسبوا من بقي حياً[١].

وفي سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م، وصل العدوّ إلى بورا التي كانت فيما بين تنيس ودمياط بشوانية، فاستباحوها قتلاً وسبياً، فقدمت إليها القطائع التي كانت على رشيد، فسار عنها العدوّ، وهناك تل عظيم من رمل خارج في البحر الشاميّ يقطع الفرنج عنده الطريق على المارة[٢]، ومن المعلوم أن سكان هذه المدن كان خليطاً من المسلمين والأقباط.

ويوضح المؤرخ الأسقف ساويرس حقيقة هذه الأحداث، فهو يذكر أن الجنود الفرنج (حملة جوبتر دي مونتيلان الصليبية) التي خرجت من عكا سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م ووصلت الى دمياط بثمانية عشر مركباً، نزلوا على دير آرميا الذي يعود للمسيحيين الملكانيين (الكاثوليك) بالقرب من دمياط بالقرب من شط بورا، وكان عدد المقاتلة ألف رجل و مائة فارس، قسموا الى مجموعتين، الأولى مضت الى الجيزة فقتلوا وأسروا من أهلها الرجال والنساء، ونهبوا المدينة وأحرقوها بالنار، والثانية مضت الى بورا فقتلوا وأسروا من الرجال والنساء ونهبوا المتاع والأموال، ولم يقاتلهم أحد لأن معظم الجيش المصري كان في الشام مع الملك العادل (٦٠٧-٦١٥هـ/ ١٢١٠-١٢١٨م)، ولم يستطع حاكم دمياط مقاتلتهم لقلة جنوده، بل أغلق أبواب دمياط، ولما علم الافرنج أنهم لا يقدرون على محاصرة دمياط عادوا الى بلادهم[٣].

ويوضح يعقوب نخلة روفيلة موقف الصليبيين من جميع المصريين مسلمين وأقباط بقوله: «وفي أثناء حروب الصليبيين أتت عساكر الإفرنج الى مصر واستولت على جهات منها، وكانوا في كل بلد يدخلونها يقتلون سكانها ويسبون نساءها وينهبونها، فأثرت هذه الفظائع تأثيراً رديئاً في نفوس المسلمين، ونفرت قلوبهم من كل نصراني مهما كان مذهبه، ... مع أنهم أي الأقباط لم ينجوا من يد الإفرنج ولم يسلموا من شرهم حينما حلوا بمصر، ولما وصلوا إليها في أول مرة نزولاً بمدينة الفرما وقتلوا جميع من بها بدون تمييز بين مسلم ونصراني»[٤].

(١) إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، ج٣، ص١٧٠.
(٢) المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص٣٣٦؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، (القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، ج٢، ص٢٩٣.
(٣) ساويرس ابن المقفع، تاريخ البطاركة، ج٣، ص١٦٧٦.
(٤) روفيلة، يعقوب نخلة، تاريخ الأمة القبطية، ط٢، مطبعة متروبول، (القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، ص١٥٧.

وفي سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م توجه الصليبيون بقيادة حنا دي برين ملك مملكة بيت المقدس بحملتهم الخامسة الى مصر ودخلوا دمياط، وقد تم اختيار مدينة دمياط بالذات لتكون المكان الذي تبدأ به الحملة بغزوها والاستيلاء عليها؛ لعدة أمور: أولاً لقربها من مراكز الصليبيين في الشام وخاصة عكة، كما أنها كانت قفل الديار المصرية وأنه يمكن عن طريقها الوصول الى القاهرة العاصمة، كما أنها إحدى ثلاث مدن هامة بمصر والمدينتان الأخريان هما الإسكندرية والقاهرة، وأن سقوط أي مدينة من هذه المدن الثلاث يعني سقوط مصر كلها(١).

وقد قاسى سكانها المسيحيون (الأقباط) الويلات على أيدي الصليبيين(٢)، وهذا ما أكده ابن الأثير بقوله: «لما ملك الفرنج دمياط أقاموا بها، وبثوا سراياهم في كل ما جاورهم من البلاد، ينهبون ويقتلون» (٣).

ولما نزل جنود الحملة الصليبية على ساحل دمياط واحتلالهم المدينة، قلق السلطان وأخذ القادة يتساءلون عمّا إذا كان النصارى في مصر سيستقبلون الإفرنج بحفاوة، كما استقبلهم النصارى الأرمن في بلاد الشام، وتساءلوا هل من الحكمة أن يحولوا دون هذا التعاون الذي قد يؤدي الى عواقب خطيرة بالنسبة الى المسلمين، ومما زاد المشكلة تعقيداً أنه كان في دمياط نفسها عدد كبير من النصارى الملكيين، وكان هذا القلق وحده كافياً لبعث الاضطرابات في القاهرة خاصة، وقد شمل الذهول والفزع جميع السكان، وراجت الإشاعات حول موقف النصارى فأصبحوا موضع الريبة، وثار ضدهم الكثير من الناس(٤).

ففي قرى أشمون ثار المسلمون على الأقباط وقتلوا جماعة منهم، بسبب ما أصابهم من جنود الحملة الصليبية، وكانت الفتنة كلما مرَّ الزمن اشتدت وعظمت على الجميع(٥).

غير ان الأقباط يروون أن الافرنجة في سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م نصبوا منجنيقاً كبيراً مقابل دمياط فكانوا يرمون الحجارة الى داخل المدينة فتقتل من تصل اليه وتهدم دورهم، فهلك فيها خلق عظيم من المسلمين والمسيحيين (الأقباط)(٦)، وأنه بدخول الصليبيين الى دمياط أساؤوا الى القبط وأنكروا عليهم حقوقهم، بل

(١) غنيم، تاريخ الحروب الصليبية، ص١٧٧؛ أ.ل.بتشر، تاريخ الأمة القبطية وكنيستها، ج٣، ص١١٣.
(٢) سوريال عطية، تاريخ المسيحية الشرقية، ص١١٧.
(٣) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، (بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)، ج١٠، ص٣٠٧.
(٤) جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي الى عام ١٩٢٢م، ص١٤٠.
(٥) ساويرس ابن المقفع، تاريخ البطاركة، ج٤، ص١٥٣.
(٦) ساويرس ابن المقفع، تاريخ البطاركة، ج٣، ص١٧٣٨.

زادوا على ذلك بأن عينوا مطراناً من رجال كنيسة رومية (كاثوليكي) الغريبة عن مصر جنساً وعقيدة[١].

ولقد شعر الأقباط بالسخط على الجنود الصليبيين لما ارتكبوه من أعمال القتل والأسر والنهب ولم يفرقوا بين مسلم ومسيحي، وكذلك لتعيينهم مطراناً تابعاً للكنيسة الغربية الكاثوليكية بدل الأسقف القبطي الأرثوذوكسي، ولقد تكررت أعمال الجنود الصليبيين المتوحشة ففي أحداث سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م: « أخذت الفرنج ثغر دمياط، فدخلوا ورفعوا أعلامهم على الأبراج والأسوار، ثم إنهم غدروا بأهل البلد، ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسراً ونهباً»[٢].

فشلت الحملة الصليبية الخامسة على مصر وغادر الفرنجة ونفذوا جميع مطالب الملك الكامل، وهذه النهاية أبهجت القبط، ولما رأى الملك الكامل (٦١٥-٦٣٥هـ/ ١٢١٨-١٢٣٧م) منهم ذلك ركن إليهم وقربهم ورفع مقامهم وعمل على ما فيه راحتهم، يدل على ذلك أن بعض الأمراء قبض على بعض الرهبان وسلبهم مبلغاً من المال بحجة أنهم تأخروا في دفع الجزية السنوية، وكان هذا المبلغ هو كل ما يملكه الرهبان فشكوه للملك الكامل، فنظر في دعواهم وأمر بإرجاع المال إليهم[٣].

وفي سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م غادر لويس التاسع الملك الفرنسي مملكته متوجها الى مصر على رأس الحملة الصليبية السابعة، ووصل دمياط سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م وقدر عدد أفراد جيشه بحوالي خمسين ألفاً كما يذكر جوانفيل[٤]، ومائتي ألف راجل وعشر آلاف فارس كما يذكر المقريزي[٥]، وقد استولى الصليبيون على كل المؤن في المدينة، وعملوا على تحويلها الى مدينة ذات طابع مسيحي، فحولوا المسجد الى كنيسة باسم نوتردام، وعينوا عليها أسقفاً كاثوليكياً[٦].

ويذكر المقريزي أنهم لما أخذوا البلد وضعوا السيف في الناس، فتجاوزوا الحدّ في القتل وأسرفوا في

(١) إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، ج٣، ص١٧٨؛ أ.ل.بتشر، تاريخ الأمة القبطية وكنيستها، ج٣، ص١٧٨.
(٢) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٤، ص٣٣؛ ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧، ص٢٠٣.
(٣) إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، ج٣، ص١٨٠.
(٤) جوانفيل، مذكرات جوانفيل(القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام)، ترجمة: د.حسن حبشي، ط١، دار المعارف، (القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ص١١٣.
(٥) المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص٤٠٢.
(٦) ورد في بعض المصادر أن اسم الكنيسة (العذراء) والسبب في هذا الاختلاف أن معنى اسم نوتردام هو (سيدتنا العذراء) فالاسمان بمعنى واحد؛ طقوش، محمد سهيل، تاريخ الحروب الصليبية (حروب الفرنجة في المشرق) ٤٨٩-٦٩٠هـ/ ١٠٩٦- ١٢٩١م، ط١، دار النفائس، (بيروت، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م)، ص٦٢٨-٦٣٠؛ غنيم، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٢٤؛ أ.ل.بتشر، تاريخ الأمة القبطية وكنيستها، ج٣، ص٢٢٣.

مقدار القتلى، فقتلوا ونهبوا، فلم يفرقوا بين مسلم ومسيحي[١].

ويذكر سوريال عطية أن الأقباط في مدينة المنصورة قد أبلوا بلاء حسناً في القتال مع إخوانهم المسلمين ضد حملة الملك الفرنسي لويس التاسع على مدينة المنصورة (٦٤٧- ٦٤٨هـ/ ١٢٤٩- ١٢٥٠م)[٢].

إن الحكومات المتعاقبة على حكم مصر كانت حذرة في الغالب في التعامل مع المسيحيين، سواء المسيحيين المصريين (الأقباط) وبقية الطوائف (الملكانيين والأرمن)، أم المسيحيين من خارج مصر والذين يدخلون بصفة تجار، لذلك نرى هذا التشدد في التعامل معهم واتهامهم بمساعدة الجنود الصليبيين، فالمؤامرات والدسائس كانت مستمرة ضد هذا البلد، ومحاولة احتلال المدن الساحلية الإسكندرية ودمياط كانت مستمرة من قبل المسيحيين الأوروبيين.

يذكر المقريزي أنه في أحداث سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م أنه اجتمع بالإسكندرية ثلاثة آلاف من تجار الفرنج، وقدمت بطسة إلى المينا فيها من ملوك الفرنج، ملكان، فهمّوا أن يثوروا ويقتلوا أهل البلد، ويملكوها، فتوجه الملك العادل إليها وقبض على التجار المذكورين، وعلى من بالبطسة واستصفى أموالهم، وسجنهم وسجن الملكين، وجرت خطوب حتى أطلق السلطان نساءهم، وعاد إلى القاهرة[٣].

ويبدو أن بعض الأقباط تعاونوا مع الحملة الصليبية على مصر، فهذا جاك تاجر ينقل لنا أحداث غزو الصليبيين لمدينة دمياط ويبين موقف الأقباط فيها فيقول: أن النصارى خفوا الى استقبال الصليبيين الذين اعتبروهم كإخوتهم، وأشركوهم في موكب انتصاراتهم، كما يذكر حالة فردية واحدة لمساعدة موظف قبطي للصليبيين وهو أبو الفضائل بن دوخان فيقول: « كان اكبر الكتاب نفوذاً، وكانت سلطته قوية، فكان يراسل الفرنج ويخبرهم عما كان يحدث عند المسلمين والحكام والأعيان، وكان مبعوثو الفرنج والنصارى يقتحمون دائماً مكتبه، فكان يستقبلهم بحفاوة ويصفي أعمالهم قبل أعمال غيرهم»[٤].

وقد توجه لويس التاسع بقواته الى القاهرة واستطاع ان يعبر بحر أشموم عن طريق مخاضة سلمون بمساعدة أحد الأقباط، والوصول الى معسكر المسلمين خارج المنصورة[٥].

---

(١) المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص٤٠٢؛ وينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢٣٨.

(٢) سوريال عطية، تاريخ المسيحية الشرقية، ص١١٧.

(٣) المقريزي، الخطط المقريزية، ج١، ص٣٢٣.

(٤) جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي الى عام ١٩٢٢م، ص١٤٣.

(٥) جوانفيل، مذكرات جوانفيل، ص١١٣؛ رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ج٣، ص٣١٧؛ غنيم، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٣١.

كما يذكر رانسيمان أن الملك لويس عامل المسيحيين الوطنيين والقبط القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح بعدالة حذرة ورحبوا بحكمه[١].

أما يعقوب نخلة روفيلة فيذكر أنها وشاية تسببت بمضايقة الأقباط، بقوله: « واتخذ أولوا الغايات هذه الحرب ذريعة للإيقاع بالنصارى، وبأن الأقباط يأخذون أموال الكنائس ويمدون بها الإفرنج سراً »[٢].

لقد كانت فترة العدوان الصليبي على مصر محنة حقيقية للأقباط، ولم يملك هؤلاء إلا موقف الحياد في بادئ الأمر وانكفأوا على شؤونهم الخاصة، والتحوط ضد ما يلحقه بهم من الحكام والسلاطين، وعندما هدأت الأمور دبت الروح فيهم من جديد، وأعيدت إليهم مناصبهم وثرواتهم[٣].

وعلى كل حال، فقد تركت الحروب الصليبية أثراً سيئاً على العلاقات بين المسلمين والأقباط في مصر، في أوقات الحرب والقتال؛ على أن العلاقات ترجع الى سابق عهدها في أوقات السلم، ويرجع الأقباط الى وظائفهم في الدواوين، وتساعدهم الحكومات المتعاقبة في بناء وترميم كنائسهم، ويرجع مقدار الجزية الى ما كانت عليه.

فتذكر إيريس حبيب أنه « عاد الأقباط الى العمل في دواوين الحكومة، إذ قد أقر صلاح الدين حقوقهم كما أعاد إليهم أملاكهم المصادرة، فازدحموا في الكنائس ليرفعوا شكرهم الى الآب السماوي، وواظبوا على الأصوام والصلوات والصدقة، وازداد عرفانهم حين جاءهم الإذن بإعادة ما تهدم من الكنائس وتجديد عمارة الأديرة»[٤]، وتذكر في موضع آخر أن «الفرنجة حينما استولوا على القدس رفضوا السماح للقبط وغيرهم من مسيحيي الشرق بأن يسعدوا بزيارة الأماكن المقدسة، فلما استرجعها منهم صلاح الدين فتحها مرة أخرى لهم»[٥].

ويذكر الأنبا ديوسقورس أنه لما رأى الملك الكامل إخلاص المسيحيين وعدم انضمامهم الى الصليبيين أعطاهم الحرية الدينية، وقد منع التعرض للأقباط في شيء من شؤون دينهم، وإقامة شعائرهم، وإعادة بناء وترميم ما تهدم من كنائسهم[٦].

(١) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ج٣، ص٣١٥.
(٢) روفيلة، تاريخ الأمة القبطية، ص١٥٨.
(٣) سوريال عطية، تاريخ المسيحية الشرقية، ص١١٨.
(٤) إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، ج٣، ص١٦٠.
(٥) إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، ج٣، ص١٦٠.
(٦) الأنبا ديوسقورس، موجز تاريخ الكنيسة، ج٢، ص٤٣٩.

المبحث الثالث

موقف الأقباط من الحروب الصليبية في العصر المملوكي

انتهى حكم الأيوبيين بموت السلطان الملك الصالح أيوب، وبدأ حكم جديد لمصر هو حكم المماليك سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م.

وعلى الرغم من أن حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر المسماة بالحملة السابعة باءت بالفشل، وفشلت الحملة في تحقيق أحلام الصليبيين في استرداد بيت المقدس عن طريق مصر، ومغادرتهم دمياط متوجهين نحو قبرص، بعد أن فك المماليك أسر الملك لويس التاسع، مقابل فدية كبيرة وشروط مذلة(١)؛ إلا أن تبعات هذه الحملة ظلت مستمرة، وظهرت بوضوح بطبيعة تعامل المماليك مع الأقباط في مصر من جهة، وإصرار المماليك على استمرار محاربة الصليبيين الى أن يتم إخراجهم من الشام أيضاً.

ولقد مارس المماليك ضغوطاً كبيرة على الأقباط، بسبب تأثير الأحداث السياسية الخارجية المتمثلة في الحروب الصليبية(٢).

وعلى الرغم من أن المؤرخين يذكرون أن سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م تعتبر نهاية الحملات الصليبية على العالم الإسلامي(٣)، إلا أن الحقيقة هي أن هذه الحملات ظلت مستمرة على بلداننا الإسلامية، وإن لم تحمل مسمى حملة صليبية، وهذا ما سنلمسه عند الحديث عن مواقف المماليك من هذه الحملات.

وتحدثنا بعض المصادر التاريخية عن حدوث اضطرابات وفتن داخلية زمن الحملات الصليبية سببها الأقباط، ففي سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م كثر الحريق بالقاهرة ومصر في مدة سفر السلطان وأشيع أن ذلك من النصارى، ونزل بالناس من الحريق في كل مكان شدة عظيمة ووجد في بعض المواضع التي احترقت نفط وكبريت، فأمر السلطان بجمع النصارى واليهود وأنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم وأمر بإحراقهم، فجمع منهم عالم عظيم في القلعة وأحضرت الأحطاب والحلفاء، وأمر بإلقائهم في النار فلاذوا بعفوه وسألوا المن عليهم، وتقدم الأمير فارس الدين أقطاي أتابك العساكر فشفع فيهم على أن يلتزموا بالأموال التي احترقت وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار، فأفرج عنهم السلطان وتولي البطريرك

(١) محمود، شفيق جاسر أحمد، المماليك البحرية وقضائهم على الصليبيين في الشام، ط٢، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، ص١٢٥.

(٢) قاسم، قاسم عبده، أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية المماليك، ط٢، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، ص٦٠.

(٣) محمود، المماليك البحرية وقضائهم على الصليبيين في الشام، ص١٣٧.

توزيع المال والتزموا ألا يعودوا إلى شيء من المنكرات ولا يخرجوا عما هو مرتب على أهل الذمة وأطلقوا[١].

وقد عرف العصر المملوكي حوادث كثيرة لتدمير الكنائس، وقد قام الرهبان في بعض الأحيان بإشعال النار في المساجد وحرقها، وشهدت الفترة بين أعوام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م وحتى سنة ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م طرد الكثير من الأقباط من وظائفهم، وكان البلاء كله في الوجود الصليبي بالمنطقة، والذي جعل المماليك يتوجسون خيفة من المسيحيين الشرقيين، لئلا يتعاونوا مع الفرنج المعتدين، وتتحدث الروايات عن إحراق أربع وخمسين كنيسة في القاهرة، بالإضافة الى عدد آخر من الأديرة في تلك الأيام العصيبة[٢].

وفي سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م هجم الصليبيون على مدينة الاسكندرية ونهبوا المسلمين والأقباط جميعاً، واستطاعوا أن يأخذوا خمسمائة أسير، وأجبروا ابنة كاهن في إحدى الكنائس على تسليم كل ما في صندوق الكنيسة من الأموال، وبالمقابل اتهم المماليك رجال الدين الأقباط بالتعاون مع الصليبيين، لذلك قاموا بمحاكمة البطريرك القبطي يوهانس العاشر (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م- ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) وإجباره على توقيع صك بمصادرة أملاك الكنيسة[٣].

لقد أثارت الحملة على الإسكندرية كوامن الغضب تجاه المسيحيين في مصر، وقد تجلت على شكل إجراءات انتقامية سريعة ضد طوائف المسيحيين سواء الأقباط أو الجاليات الأوروبية والتجار، وذلك بمصادرة ربع أموالهم لإصلاح ما خُرب في الإسكندرية وفداء أسرى المسلمين[٤].

ذكر ابن كثير هذه الحادثة معلقاً عليها بقوله: « فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار بعد ما حرقوا أبوابا كبيرة منها، وعاثوا في أهلها فسادا، يقتلون الرجال ويأخذون الأموال ويأسرون النساء والأطفال»[٥].

وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية أن يُؤخذ من النصارى ربع أموالهم لعمارة ما خرب من الإسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج، فأهانوا النصارى وطلبوا من بيوتهم بعنف وخافوا أن يقتلوا،

(١) ساويرس ابن المقفع، تاريخ البطاركة، ج٤، ص٧٩٧؛ المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، ج٥، ص٢٥.

(٢) سوريال عطية، تاريخ المسيحية الشرقية، ص١١٩؛ جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي الى عام ١٩٢٢م، ص١٤١.

(٣) سوريال عطية، تاريخ المسيحية الشرقية، ص١١٩.

(٤) طقوش، تاريخ الحروب الصليبية، ص٦٩٤.

(٥) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، دار الفكر، (بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م)، ج١٤، ص٣١٤.

ولم يفهموا ما يراد بهم، فهربوا كل مهرب[١].

ولا يمكن أن نلقي اللوم على المماليك لوحدهم في إساءة معاملة الأقباط أحياناً، وبعد كل اضطراب أو حرب أو غزو من قبل الصليبيين، فإننا نجد أحياناً أن السبب في سوء التعامل هم الأقباط أنفسهم، فيقول جاك تاجر: « نجد أولاً أن هناك أمراً له أهميته، ذلك أن السلطان أيبك هو أول من تولى الحكم في دولة المماليك البحرية، استوزر قبطياً اسمه شرف الدين أبو سعيد هبة الله، ومنحه هبة سلطة واسعة للغاية، ويحق لنا أن نعجب بعدما أحدثته جيوش الفرنج من فوضى واضطراب في البلاد، وبعد الاضطهادات التي تحملها النصارى من أجل ذلك، أن يفكر أصحاب السلطان في تعيين قبطي وزيراً على مصر، وأن هذا الوزير أسرع في وضع ضرائب جديدة أسماها (الحقوق السلطانية) فحصل للناس منها ما لا خير فيه»[٢].

وهكذا نجد أنه كلما هبط الصليبيون بلاد مصر وأوقعوا الأذى بأهلها، استفزوا بعملهم النفوس ضد القبط، فكان الضيق الذي يصيبهم ضيق مزدوج: ما يقع عليهم من بطش الصليبيين ومن كون هؤلاء الباطشين مسيحيين، ثم ما يصيبهم من المصريين حين يرون علامة الصليب على صدور المغيرين على بلادهم، على أن مضاعفة الضرائب كانت النوع الوحيد من الاضطهاد الذي انصب على القبط في تلك الفترة[٣].

وليس من الممكن أن ننظر الى موقف المسيحيين المصريين من الحملات الصليبية نظرة عامة، ويجب أن نميز بين النصارى الملكانيين (الكاثوليك) والنصارى اليعاقبة (الأقباط الأرثوذوكس).

فيرى جاك تاجر أن النصارى الملكانيين هم من ساعدوا الصليبيين في حملاتهم على مصر وليس الأقباط اليعاقبة، فيقول: « ومن الملاحظ أن الملكيين كانوا مميزين عن اليعاقبة، ذلك لأن الغرب تذكر الخدمات التي أداها له هؤلاء الملكيون خلال الحروب الصليبية»[٤].

(١) يرى ابن كثير أن هذا مما لا يسوغ شرعا، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة والصغار، وأحكام الملة قائمة، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد- الفرد- فوق ما يبذلونه من الجزية؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٣١٥.

(٢) جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي الى عام ١٩٢٢م، ص١٤٨.

(٣) إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، ج٣، ص٢٨٩.

(٤) جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي الى عام ١٩٢٢م، ص١٤٨.

الخلاصة

مما سبق نخلص إلى بعض النتائج والتي يمكن ايجاز مضامينها بما يلي:

١- بالنسبة للأقباط فقد كانت الحملات الصليبية تمثل أشد الكوارث هولاً على المجتمعات المسيحية الشرقية، فالحملات الصليبية التي هجمت على العالم الاسلامي حاملة علامة الصليب، قد ولدت كراهية مريرة في نفوس الناس ضد المسيحيين الغربيين والشرقيين على حد سواء.

٢- أكدت الحروب الصليبية ارتباط الأقباط في مصر بإخوانهم المصريين المسلمين، بسبب التاريخ الطويل للتعايش بين المسلمين والأقباط من جهة، وللعداء الطويل بين الكنيستين الغربية (الكاثوليك) ومنهم جنود الحملات الصليبية، والشرقية (البروتستانت) ومنهم الأقباط.

٣- ان وجود الصليبيين في البلاد المصرية لم يعد على الأقباط بأي فائدة، لأن الصليبيين كانوا يعتقدون أن الأقباط هراطقة، لأنهم أرثوذوكس على خلاف كنيسة روما الكاثوليكية، والأقباط ليسوا تحت سلطة بابا الفاتيكان.

٤- زاد التعصب عند المسلمين على الأقباط لما شاهدوه من تأثير غزو الحملات الصليبية لمدن مصر، وكانت عواقب هذا الغزو تقع على رؤوس القبط، فسواء كان الغالبون هم المسلمون أو الصليبيون فإن للأقباط من كليهما نصيب وافر من الضيق.

٥- عامل الصليبيون الأقباط كرعايا من الدرجة الثانية، فعند دخول الغزاة الصليبيين أي مدينة مصرية كان مصير الأقباط مثل مصير المسلمين من القتل أو الأسر ونهب الأموال، كما منعوهم من الحج الى بيت المقدس بحجة أنهم ملحدون، فلم يكن حزن الأقباط على فقدان بيت المقدس بأقل من حزن المسلمين.

٦- كانت لدى الحكام والسلاطين مخاوف وشكوك في موقف الأقباط تجاه الصليبيين الذين يهددون مصر، على أساس أن كلا الطرفين كانوا على دين واحد وهو المسيحية، ومن ثم كان من الضروري مراقبة سلوك الأقباط عن كثب من جانب الحكام وكذلك عامة الناس، وظل هذا الموقف سائداً في مصر طيلة الفترة المأساوية للعدوان الصليبي على المنطقة.

٧- وعلى الرغم من سياسة الحكام المصريين المتسمة بالتسامح تجاه الأقباط، إلا أن هذا لم يحل دون فرض بعض الضرائب الإضافية عليهم لمواجهة الخطر الصليبي.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأولية

١- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، (بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

٢- ابن اياس، محمد بن أحمد الحنفي المصري (ت ٩٣٠هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطابع الشعب، (القاهرة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م).

٣- ابن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله (ت ٧٣٦هـ)، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، عيسى البابي الحلبي، (دمشق، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م).

٤- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت ٤٨٧هـ)، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).

٥- ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، (القاهرة، بلا.ت).

٦- ساويرس ابن المقفع، ابو البشر (ت ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م)، تاريخ البطاركة، تحقيق: عبد العزيز جمال الدين، ط١، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).

٧- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، (القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).

٨- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، ط١، مؤسسة الرسالة، (بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).

٩- ابن شداد، يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة (ت ٦٣٢هـ)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط٢، مكتبة الخانجي، (القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

١٠- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، دار الفكر، (بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م).

١١- المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).

١٢- المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار= الخطط المقريزية، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).

١٣- ابن واصل، محمَّد بن سالم بن نصرالله بن سالم الحموي (ت ٦٩٧هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: الدكتور جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، (القاهرة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م).

ثانياً: المراجع الثانوية

١٤- الاسكندري، عمر؛ سفدج، الميجر أ. ج، تاريخ مصر الى الفتح العثماني، ط٢، مطبعة المعارف، (القاهرة، ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م).

١٥- الانطواني، الراهب القمص انطونيوس، وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها من بعد الآباء والرسل حتى الانتداب البريطاني على مصر (منذ عام ١٥٠م الى عام ١٨٨٢م)، ط٢، المكتبة القبطية، (القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

١٦- أ.ل.بتشر، تاريخ الأمة القبطية وكنيستها، تعريب: اسكندر تادرس، مطبعة مصر، (القاهرة، ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م).

١٧- إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، مكتبة كنيسة مارجرجس باسبورتنج، (الإسكندرية، بلا.ت).

١٨- الأنبا ديوسقورس، موجز تاريخ الكنيسة، إعداد ومراجعة: دياكون ميخائيل مكسي اسكندر، مكتبة المحبة، (القاهرة، بلا.ت).

١٩- جوانفيل، مذكرات جوانفيل(القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام)، ترجمة: د.حسن حبشي، ط١، دار المعارف، (القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

٢٠- رانسيمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: نور الدين خليل، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

٢١- روفيلة، يعقوب نخلة، تاريخ الأمة القبطية، ط٢، مطبعة متروبول، (القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

٢٢- ستانلي لين بول، تاريخ مصر في العصور الوسطى، ترجمة وتحقيق وتعليق: أحمد سالم سالم، ط٢، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م).

٢٣- جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي الى عام ١٩٢٢م، مؤسسة هنداوي، (القاهرة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٢م).

٢٤- سوريال عطية، عزيز، تاريخ المسيحية الشرقية، ترجمة: إسحاق عبيد، المشروع القومي للترجمة، ط١،

المجلس الأعلى للثقافة، (القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).

٢٥- طقوش، محمد سهيل، تاريخ الحروب الصليبية (حروب الفرنجة في المشرق) ٤٨٩- ٦٩٠هـ/ ١٠٩٦- ١٢٩١م، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٢٦- عاشور، سعيد عبد الفتاح، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، (القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

٢٧- غنيم، إسمت، تاريخ الحروب الصليبية، جامعة الإسكندرية، (الإسكندرية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

٢٨- قاسم، قاسم عبده، أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية المماليك، ط٢، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

٢٩- محمود، شفيق جاسر أحمد، المماليك البحرية وقضائهم على الصليبيين في الشام، ط٢، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

٣٠- منير، عمرو عبد العزيز، ثورات مصر الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٤م).